مذكراتي من كابل إلى بغداد الجزء الثاني

كان شعوري وأنا في السيارة أنظر إلى الجبـال حـولي مزيج ما بين الشعور بالعزة والتأمل والحديث الصامت بيني وبين تلك الجبال فكم شهدت من المعارك وكم سار عليهـا من الرجال الأبطال وكم وطئتها إقدام الكثير من الـشهداء وكم عانت وأهلها من ويلات الطائرات والراجمات الروسية التي لا ترحم ولا تفرق بين صغير أو كبير فكانـت تحـرق القرى وتحصدها وتقتل البشر بدون أي اعتبار للقيم البشرية ، وفجأة أيقظني من سهوي وتفكيري وقوفنا أمـام بوابـة معسكر (حركة الأنصار) وهي جماعـة باكـستانية كـان يرأسها الشيخ \ فضل الرحمن خليل (وهي جماعة انحلـت وألغيت بعد سنوات قليلة من هذا الوقـت) وبعـد الإذن بالدخول استقبلونا بالترحيب وجاؤا لنا بـشخص يـتكلم العربية ولكن بشكل مقبول شيئاً ما وأخذنا إلى مكان نومنا

واستراحتنا وكان هذا الأمر محل مفاجأة لي عندما علمت أننا الوحيدين العرب الموجودين في المعسكر وأن جميع الإخوة المتواجدين هم من الأسيويين مثل باكستان وكشمير والهند والفلبين وماليزيا وأندنيسيا ، حقيقة استشعرت كيف ستكون صعوبة الأيام علينا إن لم نجد من يتحدث العربية في هذا الكم الهائل من المجاهدين وفعلاً هذا ما حصل معنا في ما بعد حيث بقينا عدة أيام لا نقوم بعمل أي شيء انتظاراً لموعد بداية التدريب ، ومع صعوبة الظروف العامة التي بدأنا نعانيها ليس من الإخوة في المعسكر فهم والشهادة لله حاولوا كثيراً أن يهيئوا لنا المناخ المناسب لكن هناك عوامل كثيرة صعبت وضعنا ، أولها وكما يعرف من ذهب إلى معسكرات التدريب في أفغانستان طبيعة أجواء المعسكرات القاسية لمن يأتي جديد إلى المعسكر فهو ينتقل من حياة الدعة والنعيم إلى الشدة والتقشف ومن الحياة المدنية إلى الحياة العسكرية وهذا كله يمكن تجاوزه مع الأيام والتعود عليه وليس بالأمر الصعب ولكن كانت لدينا مشكلة الطعام فالإخوة الباكستانيين عُرفوا بحبهم الزائد للبهارات الحارة

واختلاف طبيعة أكلهم عنا نحن العرب وهذا الشيء سبب لنا أمراض الباطنية و اضطرابات في الجهاز الهضمي حتى أصبحنا لا نقتات إلا على الخبز والشاي وهناك ما يسمونه بالحلوى الأفغانية وهي مزيج من السكر والطحين المطبوخة مع بعضها وهذا سبب لنا اضطراب في الحالة الصحية مما أثر على تدريبنا والأهم من ذلك أن التدريب العسكري ليس فقط في اللياقة البدنية أو فك وتركيب السلاح فأنت بحاجة إلى فهم السلاح كما تفهم نفسك حتى تستطيع التعامل معه وهناك التكتيك العسكري وغيرها مما يعتمد على مبدأ الفهم والوعي وهذا الشيء بالنسبة لنا كان مفقوداً بسبب فقدان عامل اللغة في التواصل مع المدربين ، ومع كل هذه الظروف المربكة إلا أنني كنت أتحملها نفسياً بسبب فرحتي العارمة لوجودي في أفغانستان ولم يكن هذا الشيء كافياً لمساعدتنا في استيعاب التدريب لذلك تدبر الإخوة نقلنا إلى معسكر آخر فيه مدربين يتكلمون العربية وفعلاً أخبرونا أننا سننتقل إلى معسكر (الصديق) وهو يبعد مسافة ساعة تقريباً مشياً على الأقدام وكان هذا بعد أن قضينا شهراً كاملاً في

معسكر (حركة الأنصار) وفي اليوم المحدد لمغادرتنا ودعنا الإخوة في المعسكر وشكرناهم على حسن ضيافتهم لنا ثم تحركنا مشياً ومعنا ثلاثة من الإخوة الباكستانيين وبعد ساعة كنا وصلنا إلى معسكر (الصديق) واستقبلنا الإخوة هناك بكل ترحاب حيث كانوا على علم بمجيئنا وعن السبب في ذلك وكانت المفاجأة أنهم كلهم باكستانيون ولكن يتكلمون العربية جيداً وهذا ما أراحنا كثيراً والحمد لله .

تتالت الأيام وكنت وأخي أبو خوله في غاية الحماس والمثابرة فتغيير ظروفنا للأحسن رفع كثيراً من معنوياتنا حيث أن الإخوة في المعسكر قاموا بعمل برنامج خاص لتدريبنا وحدنا وأيضاً جاء بعد فترة بعض الإخوة المدربين العرب للمساعدة في تدريبنا في المواد التي تحتاج إلى معرفة بمفردات اللغة العربية حتى يسهل إيصال المعلومة كما ينبغي وأذكر من هؤلاء الإخوة وهم من قدامى المجاهدين في أفغانستان ممن بقوا في المعسكرات لتدريب الأجيال الجديدة المقبلة على الجهاد أذكر منهم أخي عبد العظيم المصري (وقد أستشهد فيما بعد أثناء قتاله مع طالبان ضد التحالف

الشمالي في أفغانستان) وأخي أبو سليمان المدني من بلاد الحرمين (أستشهد مع أخيه عبد العظيم المصري في نفس المعركة) وأخي عبد الحميد الليبي (والذي أستشهد أثناء الاجتياح الأمريكي في أفغانستان وكان يقاتل مع طالبان ويدعى وقتها إبراهيم الليبي) وأخي خلاد المصري (أستشهد في مدينة كراتشي في باكستان ومعه أبنته الصغيرة أثناء اقتحام القوات الباكستانية لمترله بعد فترة من سقوط طالبان ويدعى وقتها أبوالزبير المصري) وأخي أبو عطا التونسي (أستشهد عند جبل صابر في شمال كابل فترة طالبان جراء القصف من قوات التحالف الشمالي) وأخي الحبيب أبو سليمان المغربي (أستشهد فيما بعد في الشيشان في الحرب الأولى) وكان هذا الأخ رحمه الله أقرب المدربين إلى نفسي لما كان يتمتع به من أخلاق عالية وصفاء في النية وطيبة في القلب ودائماً ما كان يصبّرنا بسبب قسوة التدريب وظروف المعسكرات الاستثنائية في قضية التعامل ما بين المدرب والمتدرب فهذا كله له معاني نفسية عسكرية يراد غرسها في داخل المتدرب حتى يعيها أكثر من خلال

المعايشة لما فيها من مصلحة مرجوة وهي صقل شخصيته العسكرية ورسمها في شكل معين يستطيع من خلاله التعايش مع أكثر الظروف قساوةً في حياته المدنية العامة أو في داخل الجبهات وأثناء المعارك .

تسارعت الأيام وأنا وأخي أبو خوله نجتاز بكل همه ونشاط ما أعد لنا من برامج تدريبه وكنت خلال تلك الفترة أجد نفسي أتطور يوماً بعد يوم ، وفي أحد الأيام جاءنا خبر استشهاد القائد البطل \ أبو معاذ الخوستي رحمه الله في كابل أثناء قتاله مع قلب الدين حكمتيار ضد رباني ومسعود وكان مقتله على يد جماعة (دستم) الذي كان حينها متحالفاً مع حكمتيار ولكنه غدر به وقتها وقتل أبو معاذ الخوستي في هذا الغدر وخسرت الأمة بطلاً من أبطالها عرفته معارك منطقة خوست حتى سمّي عليها وهو من أبنا فلسطين الذين هبوا لنصرة اخوانهم الأفغان في وقت مبكر من الجهاد الأفغاني فرحمك الله يا أبا معاذ الخوستي وأسكنك فسيح جناته .

انتهى التدريب المقرر لنا بحمد الله بعد أن تجاوزنا جميع

مراحله بكل نجاح وكانت أياماً جميلة ولحظات سعيدة التي قضيناها في المعسكر وحقيقة لا أبالغ إن قلت أنني في نهاية الدورة كنت شخصاً آخر بمعنى الكلمة فقد جئت شاباً ناعم العود اعتاد على حياة الدعة بعيداً عن مآسي أمته ونكباتها وفي نهاية التدريب كان قد اشتد عودي وقوية عزيمتي وازداد فكري وعياً وإدراكاً بواقع أمتنا الجريحة فازدت ثقة بالنفس وازدت عزماً على المضي قدماً في طريق النصرة حتى تنجلي الغمة أو نلقى الله في ساحات الوغى وأن أكون ناصحاً لنفسي ولإخواني على أن لا نحيد عن المنهج الصحيح الذي خطه لنا نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم فقد رأيت العجب العجاب من أفكار ومناهج كلها يدّعي أنه على الحق وهم قد خالفوا الحق ظاهراً وباطناً فالحق يجمع الأمة ويوحدها تحت كتاب الله أما هؤلاء الجماعات والأفكار فقد جعلوا الأمة زرافاتٍ ووحدانا وجعلوها شذر مذر هدانا الله وإياهم وردهم للحق رداً جميلا ، بعد انتهاء التدريب كنت على شوق كبير في أن أعود إلى باكستان حتى أستطيع من هناك التوجه إلى البوسنة ، وفي اليوم المقرر

ودعت الإخوة المدربين ثم ودعت أخي وحبيبي أبو خولة الذي قرر البقاء في المعسكر لفترة إضافية وكان وداعي له وداعاً مراً بكينا خلاله كثيراً فما ندري هل ستجمعنا الأيام أم لا وفي الحقيقة كان هذا آخر عهدي بأبي خولة وكنت أتتبع أخباره ويتتبع أخباري ونتراسل بالسلام من خلال الإخوة حتى بلغني خبر استشهاده في الشيشان في الحرب الثانية حيث أخبرني أحد الإخوة الذين كانوا في المعركة أثناء الانسحاب من (قروزني) عاصمة الشيشان يقول : بقينا نمشي عدة أيام مع زاد وماء قليل أصيب أثنائها أبو خولة وآخرين وكانت الثلوج ترتفع عن الأرض بنصف متر وكنا نعاني في حمل الجرحى وعند أحد الكهوف أصر أبو خولة أن يتركه إخوانه بعد ما رآه من شدة التعب وقلة الزاد التي هم فيها وكانت أصابته بليغة وقال لهم اتركوني في الكهف واذهبوا لتحصيل المساعدة فإن عدتم فتساعدوني وإن لم تعودوا أسأل الله أن يتقبلني شهيداً فاضطر الإخوة مكرهين تحت إصراره وتحت وطأة الظروف التي يعانونها من تركه في الكهف والمغادرة وبعد أن يسر الله لهم الوصول إلى منطقة

أمان علم القائد خطاب رحمه الله بالأمر فغضب وقلما كان يغضب بهذا الشكل فأمر مجموعة بالعودة وإحـــضاره فـــأبو خولة من القيادات الأكفاء الذين لا يمكن التخلـــي عنـــهم ببساطة ولِما كان يمتاز به من مكانة عند القائـــد خطـــاب والإخوة جميعاً هناك ، ولما وصلت المجموعة للكهف وجدوه قد فارق الحياة فرحمك الله يا أبا خولة يا خالـــد اللحيـــدان كنت شهماً كريماً بطلاً مقداماً راقياً في أخلاقك منافـــساً في كريم خصالك لم ولن أنساك فقد بنيت معـــي أول لبنـــات حياتي في هذا الطريق كيف أنساك وقد كنت معيناً لي علـــى الطاعة وصادقاً معي في النصيحة مواســـياً لي في الملمـــات أتذكرك وأنت تأخذ بيدي كلما أنهكني التعـــب ونحـــن في التمارين الصباحية أو في المسيرة اليومية وتقول لي (اصبر يا أبو...... فإن صبرت اليوم فغداً تقود الرجال) فرحمك الله ما أحلمك وأحكمك صاحب همه وذو بصيرة ، اعذرني يـــا أخي الحبيب واعلم أن ما قلته فيك لا يرقـــى إلى مـــستوى قدرك ولكن يعلم الله أحمل القلم في يدي وإني لمشتت الذهن من واقعي وظرفي الذي أنا فيه أسأله ســـبحانه أن يحفظـــني

وإخواني من كل شر وسوء وأن يجمعنا بك وبمن سبقنا مـــن الأحبة في جنات النعيم .

وللحديث بقية

